

ملاحق الخليج < ملحق الخليج الثقافي >

كثافة تعبيرية تميل إلى البساطة الفطرية

عارف الريس . . شاعرية التشكيل

المصدر : (عمران القيسي)

تاريخ النشر: 29/04/2013

هل يترك موت الفنان فراغاً كبيراً؟ وهل يؤثر هذا الفراغ في صيرورة وتكوين حركة فنية في حقبة زمانية قلقة؟ بالنسبة إلى الفنان اللبناني الراحل عارف الريس، نستطيع أن نلمس بكل حواسنا، ونشعر بكل مدركاتنا العقلية، أن رحيله ترك فراغاً خطراً على صعيد الحركة الفنية التشكيلية التعبيرية في لبنان، بل إن جيلاً من الراحلين أثروا بما لا يتقبل الجدل في المسار الاختباري للحركة الفنية اللبنانية . فنحن لا ننكر أن عارف الريس الذي طالما اعتبرناه العمود الثاني من حركة الفن اللبناني المعاصر، مقابل العمود الأول المتمثل في الفنان بول غيراغوسيان، حيث شكل الأول أي عارف الريس ظاهرة الثابت في المتحرك، فيما شكل الثاني أي غراغوسيان ظاهرة المتحرك في الثابت . لأن إقاعات عارف الريس كانت تتموضع في الموضوعات والمراحل كافة . وتختلف كل مرحلة عن سابقتها اختلافاً كبيراً، لكن شخصية عارف الريس بقيت واضحة على أبسط تكوين تشكيلي ينجزه، أما بول غيراغوسيان، فإن لوحته الثابتة الإيقاع وقاماته التجريدية التعبيرية في معيارها الأنسي على لوحة السيمي أبستراكت تكاد تكون ثابتة وموحدة، لكنها متحركة من الداخل، حاملة حضور وانفعالات الكائن الإنساني .

على هامش هذين العمودين من أعمدة الفن اللبناني، حيث رحلوا ولم يعيشا أنشطة القرن الحادي والعشرين، نقول على هامش هذين رحل العديد من الفنانين اللبنانيين الكبار، أمثال: جان خليفة، ورفيق شرف، ونقولا نمار، وشفيق عبود وآخرون، كلهم ينتمون إلى زمن واحد، وليس إلى مرحلة موحدة، فإن عارف الريس هو القماشة التي تحمل تطريز زمان فني لبناني امتد على أكثر من نصف قرن من الزمن .

كان نجيب الريس والد عارف الريس صاحب مكتبة النجاة في مدينة عاليه المصيف الجبلي الأجل في جبل لبنان . لكنه قرّر أن يهاجر مثل أغلب اللبنانيين، وكان الزمان آنذاك ما بين بداية وأواسط الخمسينات من القرن الماضي . وقد حطّ الرحال به في بلاد السنغال الواقعة مباشرة تحت حكم الفرنسيين، كان قد بدأ يمارس التجارة والتسويق الغذائي، لذلك لحق به ابنه عارف الذي كان يعشق رقص البانتوميم الإيقاعي، ويرسم بغزارة رهيبة . وحين يصل إلى السنغال ويندهش بنهر الكوزومونز الذي تسبح فيه النسوة والتماسيح، يبدأ حالة الاندماج بعالم الغابة، ويسكن مناطق السفانا الذين يمارسون الرقص كل ليلة . يرسمهم عارف، ويكتب أشعاراً وراء ما يرسم . ويقدم معرضاً يحضره الحاكم الفرنسي الذي يندهش من هذا المهاجر اللبناني، كانت لوحته فطرية، بسيطة، ذات ألوان ملتصقة . لكن النص الشعري خارج الصورة هل كان تكملة لنص تشكيلي ناقص؟

كان عارف يحاول أن يصير جزءاً من أسرار الشجرة والغابة، والحيوان، وكان يرسم بكثافة تعبيرية تميل إلى البساطة الفطرية . لقد عرفنا الآن لماذا مثل هذه الأماكن الفطرية تجذب هؤلاء الفنانين العراة إلا من انفعالاتهم، فالفنان بول غوغان صار جزءاً من سحر الجزر الوحشية . والفنان عارف الريس صار رعشة في رقصة التام الإفريقية، فلا غرابة أن ينتقل حاملاً نتاجه الفني إلى باريس، حيث يبدأ العمل مع بيغار متدرباً على رقصة البانتوميم، لكنه بقي ضمن الروح الإفريقية يرسم ويكتب نصاً شاعرياً يقول فيه: حب النار لأحراش إفريقيا/ حب الإنسان للحياة/ حب الموت للإنسان/ عطش النفس بلا ارتواء/ عطش الجسد للدماء/ شهوة نار لا تطفئها إلا النار .

إن مرحلة إفريقيا المنفذة بالألوان المائية، والمرسومة بالخواص الغواشبية تطرح أيضاً على مستوى التنفيذ مسألة مهمة في مسار الريس حيث الرسم خارج المحترف كان حياته اليومية، مع ذلك فهو وإن كان يرسم في الطبيعة، عن الطبيعة، فإنه لم يكن انطباعياً، ولم يمارس عادة من عادات رسامي الأحاد الذين يسعون لمحاكاة المنظر، بل تقدم فناً بكامل وعيه التشكيلي .

في حقبة الستينات من القرن الماضي يدخل عارف الريس في الشمولية التصويرية، حيث أولوية الذهاب إلى التيار التجريدي السائد، لم يكن مماشاة للسائد بقدر ما كان قناعة الفنان بضرورة الولوج إلى ضمير ثقافة العصر . وعارف الريس الذي أدرك خطورة التيار التجريدي، سيعمد إلى قلب المعادلة وصولاً إلى نقطة انطلاق أخرى قوامها إجراء عملية توأمة اللون والشكل، حتى لكأن عارف أدرك مقولة الناقد غلينر وميتزنغر قبل انطلاقتها بربع قرن، وهما القائلان: كل تغيير في الشكل، رديفه تعديل في اللون، وكل تعديل في اللون يستتبع شكلاً . ولكن عارف الذاهب إلى التجريد كان لم يزل مأخوذاً ومعجباً، بالحركة الأورفية التي هي انتصار اللون على الشكل .

من اللون تنطلق لوحته التجريدية في زمن الستينات، ومن تقاطع المربعات والخطوط الأفقية والعمودية فرض سيطرته على مسطحة التصويري . لذلك أنتج تكويناً متكاملًا يحتوي على لغة مدغمة ومحملة بشتى الإشارات والألغاز .

أذكر أنه في يوم 2 إبريل/ نيسان من عام 1978، وفي ندوة حضرها كل من عارف الريس والفنان عمران القيسي والفنان عبد الحميد بعلبكي، كانت مكرسة عن رحيل الفنان العالمي الكبير بابلو بيكاسو، قال الفنان الريس بعد الانطباعية بدت الأبواب مشرعة أمام لغة

تشكيلية جديدة تتجاوب مع روح العصر، لأنها الانعكاس لذلك العصر، وهي أيضاً علامة استفهام عن نهائية الأشياء، لكن بيكاسو الذي تصدى لهذه الأفكار الجامدة، قدم عبر تجربته التشكيلية مناخاً جديداً يحمل طابعه التكعيبي ليرى المنظور من جوانبه كافة .

في أواخر الستينات بدأت حركة الحرف العربي، حيث ينغمس فيها عارف الريس، ودرس اتجاهه الحروفي في ندوة في منتصف عام 1971، فيها كل من الشاعر المرحوم بلند الحيدري والشاعر الكبير أدونيس والشاعرة الراحلة نادية تويني والفنان حليم جرداق والمهندس واثق أديب .

لكن حروفية عارف الريس هي إدخال تزييني للحرف العربي، من هنا كان يسعى إلى إكمال الحرف بإضافات تجميلية . وهو يعد ذلك بناءً هارمونياً للوحته الحروفية . وربما لهذا السبب لم تعمر التجربة الحروفية طويلاً عند عارف الريس .

لقد عاد يؤسس لغته التعبيرية على قواعد ثابتة، ربما أبرزها أنه الفنان الراصد والمتابع للحدث . بل هو البيان التشكيلي الأوضح لكل ما في الخارج من انفعالات وإرهاصات .

عارف الريس الفنان الراحل لم يزل حاضراً، بيننا ولم تزل لوحته هي الحضور المتحرك في وجود الحركة الفنية اللبنانية المعاصرة .